جيلكم أم جيلنا ؟!

عزيزى شريف :

أينا الأسعد ؟ جيلنا تجاوز سن الخمسين أم جيلك الذى لم يبلغ بعد سن الخامسة والعشرين ؟

كثيرا ما سألنى أصدقاء لك هذا السؤال ، بل كثيرًا ما سألت نفسى أنا هذا السؤال ، بل لعلى أضيف أنه – على ما يبدو – أحد الأسئلة الأزلية التى يسألها كل جيل سواء بالنسبة لنفسه أو لغيره ..

وعندما أنظر إلى إمكانات الرفاهية والتسلية التى تحيط بجيلك ، وأقارنها بما عشناه نحن فى طفولتنا من جفاف وبدائية ، أشعر أن جيلك لابد أن يكون أسعد منا كثيرًا ..

فأنا شخصيًّا لا أذكر أننى زرت طبيبًا للأطفال ، لم يكن فى أيام طفولتى قد وجد فى مصر هؤلاء الأطباء المتخصصون فى علاج الأطفال ، بل إنهم عندما ظهروا فى مصر فى أواخر الأربعينات ، وبدأت بعض أسمائهم تعرف فى الخمسينات وتنتشر فى الستينات ، كان الاعتقاد الشائع عند البعض أن طبيب الطفل هو طبيب لم يكمل دراسته !! ولعلك لا تعرف أن طبيب الأطفال على عكس هذا المفهوم الخاطئ ، هو طبيب درس عددًا كبيرًا من التخصصات التى لم يدرسها طبيب آخر ، حتى يمكنه التعامل مع مريض معرض لعديد من

الأمراض فى الأنف والأذن والحنجرة والعين والقلب والمعدة والأطراف والجلد والأورام ، إلخ ، ثم هو غير ذلك طبيب يتعامل مع نوع من المرضى لا يشير للطبيب إلى مكان الألم ، فالطفل لا يعرف غير أسلوب الصراخ ، ولكن دون ان يفصح عن سبب صراخه ، هل من اللوز أو من المعدة أو من حساسية فى جلده ؟، وعلى طبيب الأطفال وحده أن يكتشف ويعرف : أين الألم ؟

وهكذا .. فأنت يا عزيزى شريف من جيل عالجه طبيب الأطفال ، وكان زبونًا دائمًا لهذا الطبيب ، أما جيلنا فإنه تعامل فى أسوأ الحالات مع «حلاق الصحة» الذى عرف معلوماته الطبية من إجراء عمليات الطهور للأطفال ، وفى أحسن الحالات فقد كان هناك فى كثير من المدن ما يسمى «السبع بنات» وهو إشارة إلى سبع راهبات تخصصن فى تعلم كيفية علاج عيون الأطفال بوجه خاص ، لقد انتهت هذه الصورة على كل حال ، وأصبح فى أصغر قرية مصرية اليوم أكثر من طبيب متخصص لعلاج أطفال جيلكم ورعايته ..

وعندما كنا نلعب ونحن أطفال فقد كان أفضل ما نستطع أن نلعب به «نوى المشمش» وعلب الورنيش والزجاجات الصغيرة الفارغة والكرة الكاوتش أو الشراب ، لم نعرف كما عرفت يا عزيزى شريف اللعب المختلفة من السيارات والعرائس والبلى الملون والصواريخ والطائرات والدبابات ، وأخيرًا «العروسة باربى» التى لها أزياء مختلفة ..

واللعب – كما لابد أن تعرف – هى وسيلة لتنمية الخيال بجانب المتعة التى يحس بها الطفل ، وبصورة عامة أستطيع أن أقول لك إن عددًا كبيرًا من جيلى لم يعرف شيئًا اسمه «لعبة الطفل» ، وكنا كأطفال نقوم بالجهد الذاتى بتدبير حالنا ولعبنا من فضلات البيوت !

ولعلك لا تعرف أن جيلى لم يعرف الكهرباء فى سنوات طفولته فلم تكن الكهرباء قد وصلت إلى كثير من بيوتنا ، خصوصًا من نشأ منا فى القرى أو المدن الصغيرة ، كنا نضىء بيوتنا بلمبة الجاز ، ولكن فى أواخر الأربعينات دخل

هذا الساحر الغريب بيوتنا ، الذى بلمسة على مفتاح مثبت فى الحائط كان يملأ الغرفة بالنور ..

ولم أعرف فى طفولتى من وسائل الترفيه الحديثة سوى الراديو ، وكان عبارة عن صندوق خشبى يأخذ شكل الوجه ، ولعل هذا الشكل كان مقصودًا على اعتبار أن الراديو هو إنسان متحدث من الخشب !

لقد كانت لنا تقاليد خاصة فى التعامل مع هذا الصندوق ، فقد كنا نغطيه بغطاء خاص تقوم سيدة البيت بتفصيله للراديو ، وكانت هناك مواعيد ثابتة لاستعمال الراديو . صباحًا مع بداية افتتاحه بتمرينات الصباح ثم القرآن ،ومساء عند موعد صلاة العشاء ثم الأخبار ثم القرآن ، ولكن جيلك يا شريف هو جيل الراديو الترانزستور الذى تصحبه معك إلى الحمام ، وجيل التليفزيون ،وجيل الفيديو ، جيلك هو جيل الكهرباء فى كل غرفة ، والثلاجة بدل من القلة ، والبوتاجاز عوضا عن وابور الجاز ، وجهاز التكييف بدلا من المروحة الريش التى كنا «نهوى» بها على وجوهنا ..

جيلك هو جيل السهر إلى ما بعد منتصف الليل ، وليس النوم قبل الثامنة كما كنا ننام فى طفولتنا ..

جيلك هو جيل ألعاب الأتارى والسيارة والبنطلون الجينز والتليفون اللاسلكى والسوبر ماركت الذى تشترى منه فى دقائق كل حاجتك ، أما جيلى فقد نشأ فى بيوت تؤمن بالاكتفاء الذاتى فى تدبير كل احتياجاتها من خبز ومربى ومخللات وجبنة وحلويات ، كان يعتبر «عيبا» أن تشترى شيئا من كل ذلك من خارج البيت ، وكانت ست البيت فى عمل متصل طوال النهار من خبيز إلى طبيخ إلى تنظيف إلى ترضيع إلى تربية الأطفال وتربية الطيور التى كانت موجودة فى كل بيت ، فراخ وأوز وبط وأرانب ، حتى كل هذه الطيور كانت البيوت القديمة تعتمد على نفسها فى تربيتها ، فالأساس هو أن يوفر البيت المصرى حاجته ذاتيا ، والاستثناء أن يشتريها من الخارج ..

ولقد تغيرت هذه العادة كثيرا فى جيلك يا شريف ، فالأصل أصبح أن يشترى البيت كل حاجته من الخارج : خبزه ، وطيوره وحلوياته ومرباته ومخللاته وبيضه وجبنته ، بل لعله أصبح «عيبا» أن تشغل أية زوجة نفسها بعمل شيء من ذلك ، حتى يمكن القول بأن هذه الصفة أصبحت تنطبق علينا كدولة ، فبعد أن كنا نحقق حاجتنا ذاتيا أصبحنا نعتمد فى توفيرها على الاستيراد .

فى جيلنا كنا نعانى للحصول على أى شيء ، كنا نسهر طوال الليل يوم الخبيز ، وكنا ننتظر الدجاجة التى تبيض لكى نعرف طعم البيض ، وكنا نصبر الشهور على الفرخة كى تسمن وتكبر حتى نذوق لحمها ، وكنا نفرح يوم «تسييح الزبدة»حتى نلتهم سندوتشات العسل بالسمنة الطازجة ، فى جيلك أصبح كل شيء جاهزا معلبًا مغلفًا معقمًا ، فى لحظات تستطيع الحصول على كل ما تريد ، لم يعد هناك جهد ولا عناء لصنعه بنفسك كما عاش جيلى ..

وغير هذا فأنا من جيل كان يحترم الرموز ويحافظ عليها ، ولعلك شاهدت فى بعض الأفلام القديمة منظر الطربوش يغطى كل رأس ، وهذا الطربوش كنا جميعًا نرتديه ونحن تلاميذ ؛ فقد كان رمزًا لأننا أصبحنا كبارًا ودخلنا المدرسة الابتدائية وعلى وشك أن نتخرج من الابتدائية بلقب أفندى ، وهو اللقب الذى كان يطلق على كل من نال شهادة الابتدائية ..

وقد ظل الطربوش إلى ما بعد سنوات الثورة بقليل ، الصديق الذى لا يستطيع أن يخرج الشاب أو الرجل إلى الشارع دون أن يصحبه معه ، وعندما قامت الثورة فى يوليو ٥٢ وكان قادتها من أفراد الشعب العاديين ، فقد كان شيئًا جديدًا أن يتمردوا على الطربوش وعلى البدلة ، ونشاهد حكامنا بالقميص والبنطلون ، وهو ما أصبح شيئًا عاديًا فى جيلك ..

دعنى بهذه المناسبة أحكى لك شيئا عن الطربوش وشخصية كان لى حظ العمل معها فى بداية طريقى الصحفى وعملت إلى جانبه سنين طويلة ، فى بداية عملى الصحفى كان الأستاذ محمد حسنين هيكل عام ٥٣ رئيسًا لتحرير

آخر ساعة ، كان نجمًا شهيرًا فى ذلك الوقت فى سماء ولا أقول بلاط الصحافة ، ورغم التغيرات التى دخلت حياتنا فى ذلك الوقت فإن الأستاذ هيكل لم يستطع أن يتحرر من لازمتين : الطربوش والبدلة ، وعندما وجد أن الطربوش قد أصبح فى المجتمع المصرى صديقا عجوزًا مهجورًا فإنه ظل حريصًا على إمساكه بيده دون أن يضعه على رأسه .. فى غدوه ورواحه – كما يقولون – كما نشاهده دائمًا بالبدلة والطربوش ممسكًا به فى يده ، وكان فور دخوله إلى مكتبه يضع الطربوش على مكتبه ويخرج للقاء الأستاذ مصطفى أمين فى مكتبه أو الأستاذ على أمين صاحبى دار أخبار اليوم ، وطوال بقائه خارج مكتبه كنا نشعر بوجوده لأن طربوشه موجود فوق المكتب ، ومضت أسابيع بل مضت شهور قبل أن نكتشف أن الأستاذ هيكل كان يترك طربوشه فوق مكتبه ويغادر أخبار اليوم بدون الطربوش لموعد فى الخارج ، ثم يعود وهو مطمئن إلى أننا جالسون فى المكتب الذى إلى جوار مكتبه نتحدث همسًا خوفًا من طربوش الأستاذ !

ولقد مضت سنون تحرر فيها الأستاذ هيكل من الطربوش ، لكنه لم يستطع أن يتحرر من البدلة حتى اليوم ، فمن النادر من شاهده بدون البدلة فى الشتاء أو الصيف ..

هل بعدت كثيرًا عن موضوعى ؟

ربما كان عذرى أننى ولدت فى عصر الحنطور الذى كان يتهادى ، أما أنت فقد ولدت فى عصر السيارة السريعة ..

ومازال فى داخلى – غصبًا عنى – شىء من هذا الحنطور ، بجياده المطهمة التى تطرقع أقدامها فوق الأرض فنظن أنها تسابق الرياح بينما هى تسير الهوينى ..

لقد شغلت مساحة خطابى إليك دون أن أجيب عن سؤال بدأته عن أيهما الأسعد ؟ جيلك أم جيلى ؟

وكما قلت لك ، أنت ولدت فى زمن أحاطت به كل وسائل الترفيه والطفولة الناعمة التى تجد طبيبًا ومربية ومدرسة حضانة وألعابًا مختلفة ، وتنمو على

الراديو والتليفزيون والفيديو والسهر ، وتركب السيارة بلا خوف ، وتدوس على زرار الأسانسير بلا وجل ، وتحصل على كل حاجاتك من أول سوبر ماركت دون أن تعانى جهد صنع هذه الحاجيات داخل البيت المتواضع المحدود ..

أنت بلا شك أسعد منى فى كل هذا ، جيلك أسعد من جيلنا فيما ملكتموه من وسائل ترفيه وتسلية ..

ولكننا فى جانب آخر كنا أسعد منكم ، فهل تمهلنى إلى رسالة قادمة نواصل فيها ما لم نكمله ؟! لك كل أمنياتى ، وإلى لقاء فى الرسالة القادمة بإذن الله..

لأننا نعيش فوق سطح صفيح ساخن !

عزيزى شريف :

وحشتنى الكتابة إليك ، شهران كاملان لم أستطع الكتابة إليك فيهما لأسباب خاصة ليس هذا مكانها ، وبصرف النظر فمن حقك أن أعتذر إليك ، ولعلك تذكر ما كان بيننا من حديث فى آخر رسالة كتبتها إليك ، كنت أتحدث عن قضية الأجيال القديمة والجديدة ، أجيال ما بعد الخمسين ، وأجيال ما قبل الخامسة والعشرين ، وأيهما الأسعد ؟ ولعلك تذكر أننى أشرت إليك فى رسالتى إلى جيلكم الحديث وقلت لك إنه جيل الرفاهية والطفولة الناعمة ، التى تجد طبيبًا ومدرسة حضانة وألعابا ألكترونية ، وتستمع إلى الراديو فى الحمام وتحت لحاف السرير إذا أردت ، وتسهر مع التليفزيون والفيديو وتركب السيارة بلا خوف وتدوس على زرار الأسانسير بلا وجل ، وتحصل على كل حاجاتها من أول سوبر ماركت دون أن تعانى كما كان جيلنا يعانى فى صنع هذه الحاجات داخل بيوتنا ..

إنكم جيل المعلبات ونحن جيل صنع كل شىء بأيدينا ..

أنتم جيل التكنولوجيا ، ونحن جيل الراديو الخشبى الذى كان يبهرنا سماعه ، ونعتقد أن فى داخله إنسانًا يتحدث إلينا أو أن به مسًّا من الجان ..

ومن طبيعة الرفاهية أن تجعل من يتذوقها يكون الأسعد ، وقد عاش جيلكم – ولايزال يعيش – ألوانًا عديدة مختلفة من الرفاهية ، فهل هذا يعنى أنكم الأسعد ؟

نظريا لابد من ذلك ، ولكن عمليا فإننى أرى أشواك العذاب فى نفس هذه الوسائل للراحة والسعادة ، وهذا ما يجعلنا جميعًا ، سواء جيلكم وجيلنا ، «نعيش» أسباب الرفاهية ولكن لا «نستمتع» بها ..

وأنا أذكر قديمًا عندما كنت أسافر إلى الخارج وأنبهر بما أراه ، وعندما كنت أرى خطوات العلم الأولى فى الفضاء يوم ذهب رائد الفضاء السوفيتى يورى جاجارين فى أول رحلة له حول الأرض أمضى فيها ٨٨ دقيقة انبهرنا فيها بكل دقيقة عاشها وكل كلمة قالها ..

يومها عاش العالم كله مبهورًا يتابع أخبار الرحلة ..

ولكن هذه الأيام ما أكثر رحلات الفضاء التى انطلقت وأمضى أصحابها عدة أسابيع فى الفضاء وقاموا بتجارب مختلفة فى هذا الفضاء وعادوا من رحلتهم دون أن نحس بها أو على الأقل دون أن ننبهر بما فعلوه ..

خلاص ضاع منا إحساس الانبهار ففقدنا الاستمتاع بغرابة الشىء ، لقد وصلنا إلى القمر فماذا بعد ذلك ؟

كل شىء أصبح عاديًا ..

ثم إن التليفزيون أصبح ينقل إلينا ، ونحن فى داخل حجراتنا كل المشاهد المختلفة لحياة الشعوب ، لقد حول التليفزيون ووسائل المواصلات السريعة العالم إلى قرية كبيرة ليس فيها ما يبهر أو يثير العجب ..

وأنا أحس بحنين جارف إلى سنوات الانبهار التى عشتها ولم يلحق بها جيلك ..

فى سنوات طفولتى وشبابى كان التقدم العلمى يسير مرتاحًا ، ولكن فى جيلك فإن هذا التقدم يلهث ملتاعًا ..

ولهذا استمتع شبابنا بما ملك من وسائل مختلفة ..

الراديو الخشبى استمتعنا به سنوات طويلة ..

والمسجل الذى يدور بالسلك ثم بالشريط الكبير كان أملاً كبيرًا فى حياتنا .. بل لعلى أقول : إن هذا المسجل كان وراء سفر الكثيرين من المصريين إلى الخارج قبل ٢٥ سنة ، كان أمل كل مصرى أن يعود حاملاً هذا المسجل الذى بالكاد يستطيع حمله لثقله ..

كنا نستمتع بالثلاجة التى تعمل بالثلج ..

ولم تكن المخترعات كثيرة كما هى اليوم ، ولا سريعة التطور كل يوم كما هو حادث الآن ..

كان بين كل اختراع وآخر عدة سنوات يستمتع فيها المشترى بما اشترى ويسعد به ..

ولكن انظر إلى ما يحدث اليوم ، ما تكاد تشترى راديو أو تليفزيونًا أو جهاز فيديو أو ثلاجة أو سيارة أو بوتاجازًا أو غسالة ، ما تكاد تمتلك شيئًا من هذا ويخيل إليك أنك ملكت أحسن شىء حتى تقرأ عن ظهور موديل جديد أكثر تطورًا يجعلك تريد التخلص مما اشتريت والحصول على الأحدث ..

السلعة التى اشتريتها لتسعدك أصبحت سببًا من أسباب تعاستك ، ونتيجة لذلك فقد الكثيرون شعور الإحساس بالاستقرار ..

إن الاستقرار النفسي يجعلك تحس أنك تسبح فى داخلك على مياه بحيرة هادئة ناعسة حالمة ، أما عدم الاستقرار فهو يجعلك تشعر داخلك بالأمواج عالية صاخبة ، وأنتم لستم سعداء ، لأن المتغيرات كثيرة ، والتطور المستمر لا يجعل جيلكم ونحن أيضا معكم بكل أسف - يحس بالاستقرار النفسى .. فأصبحنا جميعا نجرى وراء الجزرة التى يعلقها راكب الحمار فى طرف عصا يضعها بعيدًا قليلاً عن رأس الحمار..

عزيزى شريف :

كما ترى فإن الجيل القديم كان جيل الوسائل البدائية فى كل شىء تقريبًا ، وجيلك هو جيل الوسائل المتقدمة ، جيل الريموت كونترول الذى لا يريد مخترعه أن يجعلك تكلف خاطرك وتغادر مقعدك لإطفاء أو فتح جهاز التليفزيون أو جهاز التكييف أو الفيديو ، وإنما يريد أن يوفر عليك هذه الخطوات القليلة ويجعلك تقوم بذلك وأنت جالس فى كرسيك ، جيلك هو جيل جهاز التليفون الذى له ذاكرة ، يكفى أن تضغط على رقم واحد فيه لكى يدير هو القرص نيابة عنك ويجيء لك بالرقم المطلوب دون أن تتكلف عناء إدارة القرص .

إنه جيل الأسانسير الذى بلمسة أصبح يصل بك إلى فوق ، دون أن تبذل أى جهد ، ومع ذلك فإن الأجيال السابقة التى لم تعش هذا كله أو تملكه يبدو أنها كانت الأسعد ..

لأن السعادة ليست فى الامتلاك فقط ، ولا أن تعيش عصرًا فقط ، إنما السعادة على ما يبدو أن تستمتع بهذا الشيء الذى امتلكته ، وأن تتمتع بالعصر الذى عشته ، وبدون الاستمتاع فإنك تصبح مالكا بلا سعادة ، أشبه بمن يملك مليون جنيه ولا يعرف كيفية الاستمتاع بها ، بينما الذى لديه مائة جنيه يعرف الاستمتاع بكل مليم منها .

لعل هذا هو الفرق بين جيل طفولتى وجيلك ..

كان جيل طفولتى يعرف كيف يستمتع بحياته البسيطة ، بالعربة الحنطور ، وماء القلة ، «ونوى المشمش» الذى يلعب به ، كان يملك الوقت الذى يجعله يتذوق طعم كل هذه الأشياء البسيطة ، كانت الحياة بالنسبة له أشبه «بالمصاصة» ، إنها حلوى بسيطة جدًا ، لكنها تدوم طويلاً فى يد من يتذوقها ، لأنه يستمتع

بكل رشفة ، أما اليوم فلا وقت للاستمتاع ، كل شيء يجرى ، يقفز ، يلهث ، حتى التطور نفسه ، فالحياة أصبحت فوق سطح صفيح ساخن .

ولكن ليس معنى هذا أن كل الابتكارات والاختراعات ومظاهر التطور جاءت ومعها أسباب الراحة والسعادة فى جانب ، وأسباب العذاب وعدم الاستقرار فى جانب آخر ، ففى جيلك تقدم الطب ، وتطورت وسائل العلاج ، وبعد أن كان جيلنا يكتفى بزراعة القلقاس والبامية والبطيخ ، فإن جيلكم يزرع القلب والكبد والكلية ، لقد طال عمر الإنسان بفضل هذا التطور ، وظهرت أدوية كثيرة تعالج الآلام وتقضى عليها ، وبعد أن كنا نشبه العذاب «بخلع الضرس» أصبح «خلع الضرس» فى جيلك يتم بلا عذاب ، بل إن التطور وصل إلى حد عدم الاستغناء عن أى ضرس وفصل جذوره التى فيها المرض والاستفادة بالضرس ككتلة فى الفم ..

ولو أردت أن أعدد وسائل التطور ما استطعت ..

يكفى أن جيلكم أصبح يمتلك كل إمكانات المعرفة المهولة التى أصبح سهلاً الحصول عليها ، فدوائر المعارف أصبحت تناقش كل موضوع ، ويكفى نظرة إلى فهرس هذه الدوائر لكى تستخرج ما تريد من معلومات فى ثوان ، لقد تقدمت وسائل المعرفة ، لقد تعددت وسائلها ، ولكن مشكلتك هى التليفزيون الذى يجعلك لا تجد الوقت لكى تستمتع باستخدام واستغلال هذه الوسائل التى أصبحت متاحة أمامك ، آه لو عاد العمر ، آه لو أن هذه الإمكانات المتاحة من البحث والمعرفة كانت متوافرة فى زماننا ، ولكن الزمان لا يعرف العودة بأصحابه ، ربما عاد الزمان من جديد ولكن بأجيال جديدة ، وناسٍ غير الناس ، لك كل أمنياتى ، وإلى لقاء فى رسالة قادمة بإذن الله.

كيف تكون صحفيا ؟

عزيزى شريف :

لفت نظرى فى رسالتك الأخيرة سؤالك الملح لى حول ضرورة معرفة أسماء الكتب التى أنصحك بقراءتها حتى يمكنك أن تحقق حلمك فى أن تكون كاتبًا لامعًا تنشر الصحف والمجلات اسمه بارزًا مع إنتاجه ، ولا أبالغ إذا قلت لك إن كل كاتب يتلقى كل أسبوع عددًا لا بأس به من رسائل أصحاب الأحلام الواسعة ، الذين يرون فى العمل الصحفى أملهم الوحيد الذى يتعلقون به ، مؤكدين أنهم خلقوا ليكونوا أدباء وكتّابًا ، ولا تنقصهم إلا اليد التى تجلو التراب عن كنوزهم وجواهرهم ، وتسمح للقراء بمعرفة عبقريتهم ، وبعض أصحاب هذه الرسائل لا يكتفون فقط بطلب المساعدة ، بل إنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك حينما يتهموننا نحن الذين كان لنا حظ الظهور والكتابة والنشر ، بأننا نضع العقبات والعراقيل فى طريقهم ، ونحرمهم الفرصة التى أعطاها لنا من سبقونا عندما أخذوا بأيدينا وساعدونا وعلمونا وأتاحوا لنا أن نكتب ونوقع بأسمائنا ونمسك بنجوم الشهرة .

وصدقنى أننى أقرأ كل رسالة من هذه الرسائل باهتمام ، وأحاول استكشاف ما تحمله كلماتها وسطورها ولكننى نادرًا ، بحكم خبرة طويلة فى هذا العمل الصحفى لها اليوم نحو ٣٥ عامًا ، أقول نادرًا ما أستشف هذه الجوهرة المكنونة

التى يتحدث عنها صاحبها ويريد من يجلو التراب عنها ويقدمها للجماهير أو ملايين القراء على حد قول بعضهم .

من المضحك أن كثيرًا من الذين يجرون وراء العمل الصحفى أو الأدبى يفعلون ذلك بسبب الشخصيات الصحفية التى يرونها فى الأفلام ، وهى شخصيات ليس بينها وبين الواقع أية علاقة ، فليس هناك ذلك الصحفى الذى يكتب موضوعًا ناجحًا فيرقى بعده إلى رئيس تحرير . أو ذلك الكاتب الذى يتصل من بيته ليتركوا له مكانًا فى الصفحة الأولى إلى أن يصل إلى مكتبه ويكتب مقاله .. ولا هذا النموذج من المصورين الذين يقومون بتحميض ونشر أفلامهم فى بيوتهم ، أو الموضوع الذى كان له تأثير كبير فى زيادة التوزيع ثم تساءل القراء عن اختفائه وبدأ توزيع المجلة فى الهبوط ، إن كل هذه النماذج وغيرها مما تعرضه الأفلام لا يوجد إلا فى خيال كتّاب هذه الأفلام ، أما الواقع أو الحقيقة فإن أيًّا منهما مختلف تمام الاختلاف ..

إن العمل الصحفى عمل شاق بمعنى الكلمة ، وكثير من الذين يحلمون بالصحافة ينظرون إلى الأضواء التى تشع حول الأسماء المنشورة ويجرون وراء هذه الأضواء ويحلمون أن تكون لهم مثلها ، لعلهم أشبه بالفراش الذى يجذبه الضوء دون التنبه إلى أن وراء الضوء مصباحًا تحترق أسلاكه وتتوهج ، والسؤال هو من تريد أن تكون ؟ الضوء أم المصباح ؟

الضوء الذى يشع فى العيون ويبهر الأبصار ، أم المصباح الذى تحترق أسلاكه وتتوهج ؟

ربما لأن الكثيرين من الذين يطلقون على أنفسهم عشاق الصحافة والكلمة ، يجرون وراء الضوء وكل أملهم هو النشر ، أن تنشر الصحف ما يكتبونه مذيلاً بأسمائهم ، النشر لديهم هو الهدف والأمل والمجد ، ومع أن مرحلة النشر هى مرحلة لا يصل إليها الكاتب أو الصحفى إلا بعد فترة طويلة من الجهد والمراس والتعب والعمل والاستمرار والإجادة ، فإنهم لا ينظرون إلى ذلك كله ويتعلقون

بالنشر ، وهم على كل حال أرحم كثيرًا وأخف وطأة من الذين يريدون أن يعملوا أولاً فى الصحافة ثم يتعلموا الكتابة بعد ذلك !

عزيزى شريف :

إن كان لى أن أضع أمامك بعض ما اهتديت إليه خلال عملى الصحفى الطويل لكى أساعدك فى استكشاف آفاق نفسك وموهبتك الصحفية واحتمالات قدرتك على دخول ميدان العمل الصحفى بقوة وثقة ، فإننى أرجو أن ألفت نظرك إلى ما يلى :

أولاً : إن العمل الصحفى بعيد تمامًا عما شاهدته فى الأفلام السينمائية ، وإن ما يجرى فى أرض الواقع الصحفى لا يمت لا بصلة نسب أو قرابة أو حتى علاقة بما يجرى فى خيالات الذين كتبوا أو صوروا الشخصيات الصحفية فى أفلامهم وقصصهم .

ثانيًا : إن الكتابة الصحفية بنظرة شاملة يمكن تقسيمها إلى قسمين :

الخبر والرأى ، وكل منهما فى حد ذاته فن مختلف ، كتابة الخبر وإن بدت سهلة أو عملاً روتينيًا فإنها فى الواقع فن ، وكثير من كتاب الأخبار تستطيع اكتشاف شخصيتهم وقلمهم من الخبر الذى يكتبونه ، وبالطبع فإن كتابة الرأى هى فن آخر يختلف ، فكتابة الخبر هى فن عرض المعلومات والوقائع ، أما كتابة الرأى فهى فن عرض الأفكار والرؤى ..

وهناك فريق ثالث يحاول الجمع بين الاثنين ، وهو ما يطلق عليه التحقيق الصحفى الذى يقوم فيه الكاتب أو الصحفى باستطلاع آراء الغير فى إحدى القضايا المثارة ، وصبها للقارئ فى تشكيل يعكس شخصيته .

والتحقيق الصحفى لم يكن معروفًا حتى الأربعينات من هذا القرن ، فهو آخر ابتكارات الصحافة المصرية ..

ثالثًا : إنك لكى تستطيع أن تعرف ذلك كله فإن أول ما أنصحك به هو أن تقرأ كثيرًا ، إن هناك ثلاثة أعمال رئيسية للصحفى أو الكاتب هى : القراءة والاتصالات والكتابة ، لا أظن أن هناك عملاً آخر للكاتب أو الصحفى غير هذه الأعمال الثلاثة ، وفى وضعك الآن فإن نصيحتى إليك أن تمارس العملين الأول والثالث ، أى القراءة والكتابة .

اقرأ كل ما تستطيع أن تصل إليه يدك ، وحاول وأنت تقرأ أن تكتشف:ماذا أعجبك ؟ وماذا لم يعجبك ؟ ولماذا ؟ ، وإذا أنت أمسكت الصحف الصادرة فى يوم واحد فحاول أن تقارن بين عرض كل منها لخبر واحد أو تحقيق واحد ، الأسلوب ، العنوان ، المضمون ، اللمسة الإنسانية ، ما الذى علق فى ذهنك من كل ما قرأت ؟

رابعًا : آخر شىء تحاوله لكى تعمل بالصحافة هو أن تنشر ، وأول شىء تقوم به بعد القراءة أن تكتب ، اكتب لنفسك كل يوم فى أى موضوع تفكر فيه ، تصور أنك تكتب لإحدى الصحف وأنك مسئول فيها ، فماذا أنت فاعل ؟

إنك قد لا تعرف أن جميع الكتاب لم يفكروا فى نشر ما كتبوه وإنما بدءوا بالكتابة المستمرة أولاً ، ذلك لأن الكتابة هى الرسم بالكلمات ، والرسم فى حد ذاته هو تعبير عن معان داخل الإنسان ، معان يريد أن يطلقها ويخرجها ويتنفسها ، والكتابة للصحفى مثل عملية التنفس ، إن الشهيق هو القراءة ، والزفير هو الكتابة ، ويوم تشعر أنك مللت من الكتابة فاعرف أنك تفكر فى العمل الصحفى من باب الأضواء والشهرة لا من باب العشق والامتلاك .

خامسًا : إننى لا أريد أن أنصحك بشىء معين تقرؤه ، ولكن إذا أردت العمل الصحفى فلا أقل من أن تكون مُلما بتاريخ بلدك ، لا يمكن أن ينجح صحفى أو كاتب يجهل تاريخ بلده ، بل أضيف إلى ذلك تاريخ العالم ، ومن حسن الحظ أن التاريخ هو النميمة المشروعة التى تتناول الحكايات الكثيرة

المشوقة ، وهكذا فإن التاريخ فوق أنه رواية مشوقة فهو اكتشاف للأصول التى ننتمى إليها .

سادسًا : حينما تقرأ ضع علامة تحت ما تريد أن يثبت فى ذهنك ، ثم بعد أن تنتهى من القراءة أعد النظر فيما قرأته ، واقرأ العبارات التى وضعت تحتها خطا مرة أخرى لكى تحاول تثبيت المعلومات التى عرفتها فى ذهنك .

سابعًا : لا يستطيع راغب فى الاشتغال بالصحافة أو الكتابة الانفصال عن العالم الذى يعيش فيه ، ومعرفتك بالعالم تستدعى أن تعرف إحدى اللغتين الإنجليزية أو الفرنسية ، وحبذا لو عرفت الاثنتين معًا ، ولكى تزداد معرفة باللغة تعلم أن تفتح القاموس وتعرف معانى الكلمات ، لا تستكثر المجهود الذى تقوم به فى ذلك بل أكثر منه .

ثامنًا : إذا وجدت نفسك تقلد أحد الكتاب فلا تستعجب من ذلك أو تشعر بالضيق أو الخوف ، فكل الذين سبقوك إلى الكتابة كان فى خيالهم أن يقلدوا كتابًا آخرين ، وليس فى ذلك عيب ، إنما العيب أن تتجمد داخل هذا الإطار من التقليد ولا تنمو وتكون فيما بعد شخصيتك المستقلة ، وهو ما لا يمكن أن يحدث غير بعد سنوات .

تاسعًا : لا تفرط فى الكتب التى تقرؤها ، بل حاول أن تحتفظ بها ، وافعل نفس الشىء مع الصحف التى تقرؤها ، اقطع القصاصات التى تعجبك ، وضع عليها تاريخا ..

عاشرًا : والآن ماذا تريد ؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ هل يمكنك أن تواظب على ذلك ؟ إذا استطعت فسوف تكون المصباح الذى تحترق أسلاكه وتتوهج وتنشر النور والأضواء ، أما إذا وجدت أن هذا الذى أقوله مبالغ فيه فأنت تبحث عن الأضواء لا المصباح ، أنت تبحث عن الصحافة كوظيفة لا عمل ، وهناك فرق ، إن الوظيفة لها ساعات حضور وانصراف ، أما العمل فهو حياة ، إنه لا يعرف المواعيد ولا الحدود ، إنه الحب والتضحية والإجادة ،

وكما أنه ليس كل الأذكياء عقلاء بدليل أن كل النصابين والمحتالين واللصوص هم أذكياء ولكنهم يمارسون أفعالاً تؤدى بهم فى النهاية إلى ما لا يقبله العقل ، فكذلك ليس كل من دخل ميدان الصحافة أصبح كاتبًا ، أو صحفيا ، ذلك أن بعض أوضاع التعليم قد فرضت أن يدخل البعض إلى ميدان الصحافة للعمل فيها كأصحاب وظائف ، وقد اكتشفوا بعد دخولهم الميدان الصحفى أن الصحافة سباق ماراثون طويل ، يبدأ من أول لحظة يدخل فيها الإنسان هذا الميدان ، ويستمر حتى آخر لحظة من لحظات العمر ، ولكن قدراتهم تقف بهم عند أول الطريق أو منتصفه ، فيخرجون من السباق ويجلسون على الخط ، ويستكمل السباق من ارتوى بحب المهنة وما عشقها إلى الأبد .

لك كل أمنياتى ، وإلى لقاء فى رسالة قادمة بإذن الله .

بلدك أولا وثانيا..

عزيزى شريف :

لابد أنك تابعت ورأيت مشاهد آلاف المصريين الذين كانوا يعملون فى الكويت ، ودهمتهم عاصفة الغزو العراقى والظروف المثيرة اللاإنسانية التى وجدوا أنفسهم فيها وقد اضطروا إلى أن يتركوا كل ما جمعوه وادخروه واشتروه ، فارين عائدين بأقل ما يمكنهم حمله متحملين صنوفًا بالغة من العذاب والقسوة سواء فى الصحارى التى هربوا إليها أو فى انتظار وسائل النقل التى حملتهم إلى بلادهم ، وقد كان الكثيرون لا يصدقون أنهم سوف يرون بلدهم مصر مرة أخرى .

إنها مأساة كبيرة ، لقد أصابت الكثيرين بالخراب والدمار والعذاب ، ولكن الدرس الأكبر الذى يجب أن تتعلمه الشعوب ألا تكتفى بالبكاء والنحيب فى مواجهة المحن وإنما التأمل فى ظروف وأسباب كل محنة والخروج بما يسمى الدروس المستفادة التى يمكن بها مواجهة المستقبل والوقوع مرة أخرى فى نفس المشكلة .

إنها ليست أول مرة تواجه تلك المأساة العاملين المصريين فى الخارج ، فمن قبل واجهتهم مرة فى ليبيا ، ومرة ثانية فى العراق ، وهذه المرة فى الكويت ..

وعندما تتأمل وجوه الأغلبية من هؤلاء العاملين فإنك تستطيع أن تعرف أنهم من الفلاحين البسطاء القادمين من أعماق الريف المصرى وأنه فى الوقت الذى وصلنا فيه إلى الشكوى داخل القرى من قلة الأيدى العاملة ، نجد هذا الفائض الكبير الذى يخرج من مصر متجهًا إلى مختلف الدول للعمل هناك .

إنك لم تشهد كما شهدت أنا مرحلة من الحياة ، كان الفلاح إذا خرج فيها من قريته وذهب إلى البندر يعتبر حدثًا فى حياته ، أما إذا قدر له أن يذهب إلى القاهرة فهو انقلاب يعود للحديث عنه طويلاً .

وأنت على سبيل المثال لم تحضر – كما حضرت أنا – مرحلة من الحياة كانت نساء القرية تخرج فيها باكيات مولولات وهن تودعن الابن الذى اختير للتجنيد وأصبح عليه أن يسافر إلى القاهرة لإجراء الكشوف اللازمة والفرز والتوزيع ..

كان مجرد ذهاب ابن القرية إلى التجنيد فى جيشه وبلده مصيبة كبرى لأسرته .

ولكن فكلما أصبحت ترى وتسمع فلقد جاء الوقت الذى أصبح فيه هذا الفلاح يغادر قريته ويسافر إلى بلد بعيد مثل العراق ويتطوع كما حدث من عدد كبير من المصريين للخدمة فى القوات المسلحة العراقية والاشتراك فى حرب حقيقية مات فيها الكثيرون ، ولكن الأغرب أن الأفراح والزغاريد كانت تودع هذا المسافر إلى العمل فى جيش بعيد ، وكانت من قبل تودعه بالعويل وهو ذاهب إلى جيش بلده .

ما الذى جرى وما الذى حدث ؟

لعلك تذكر أننى حدثتك فى رسالة سابقة عن ثورة التطلعات والآمال والأطماع .. هذه الثورة التى عرفها العالم قاطبة منذ انتشر الإرسال التليفزيونى فى أنحائه وسادت الأقمار الصناعية وأصبح فى قدرة أى فرد فى أبعد مكان أن يعرف أخبار الذين يعيشون فى بلاد على مسافة بعيدة عنه ..

وعندما تنظر إلى ما حدث فى حياة الفلاح المصرى فإنك تستطيع أن تلحظ ببساطة أنه فى داخل غرفته التى قد تشاركه فيها الجاموسة أو البقرة التى يعتز بها فإنه عن طريق جهاز التليفزيون الملون الموجود فى نفس الغرفة أصبح يرى بعينيه وبالألوان كل أحداث الدنيا فى مصر وفى الغرب .

وإذا كانت الحياة عبارة عن سلالم ودرجات يتتابع صعود الإنسان عليها حتى يرتفع من درجة إلى درجة سواء ماديًا أو معنويًا ، فإنك بالمقارنة إلى حياة الفلاح أو ابن القرية قديمًا تستطيع أن تقول : إن أحلامه كانت ترقص وترتفع درجة درجة فمن القرية كان يحلم بالذهاب إلى المركز ثم إلى البندر ثم إلى عاصمة المحافظة وأخيرًا حلمه الأكبر فى الوصول إلى القاهرة .

وبين كل درجة وأخرى فلقد كان يتكون لديه ما يمكنه من هضم واستيعاب الدرجة التى حققها ، ولكن بعد التليفزيون وبعد أن أصبح العالم كله بأحداثه وصوره ووسائل تقدمه وحضارته وأبطاله وشوارعه وقصوره وبيوته وفضائحه وأسراره ، كلها أمام عينيه فى داخل غرفته الصغيرة فلقد زالت تمامًا الحواجز ولم يعد ينتظر حتى يهضم كل مرحلة بل أصبح يزدرد كل ملامح ومظاهر التغيرات الكبيرة التى يراها ..

لقد تحول العالم فى نظره إلى بوفيه مفتوح ملىء بعشرات الأصناف من الأطعمة والمأكولات والحلويات والمشروبات ، ولعلك تستطيع أن ترى عددًا غير قليل من الذين يحضرون المآدب التى فيها البوفيهات المفتوحة تصيبهم الحيرة عند محاولة اختيار ما يأكلونه ، وتكون النتيجة أن معظمهم يملأ أطباقه بكميات كبيرة من الأطعمة التى ينعدم فيها الذوق فالسمك مع الخضروات مع الحلويات مع اللحوم مع الأرز مع المكرونة ، كلها عبارة عن تل كبير فى الطبق ، وكثير من الذين يملئون أطباقهم بهذه التلال لا يأكلونها لأنها أكبر من طاقتهم وشكلها وحده يسد النفس ، ولكنها سلوكيات البوفيه المفتوح التى تجعل الفرد خائفًا من أن تفرغ الأوانى فيحاول الاستحواذ على أكبر كميات منها ..

وفى رأيى أن المواطن البسيط الذى لم يتجاوز حدود قريته وفوجئ بهذا العالم الكبير وقد تضاءل حجمه وأصبحت مساحته فى حدود الشاشة الصغيرة التى يطل عليها قد أصابته لوثة ، لقد كانت أقصى أمانى أبيه أن يصل إلى القاهرة ولكن ها هى كل مصر وأمريكا وأوربا والشرق والغرب أمامه فى حجرته أمام عينيه .

وفى داخل الإنسان لابد وأن تترسب الأمانى والأطماع ، وكان طبيعيًا أن تقفز أحلام ابن القرية مرة واحدة من الوصول إلى القاهرة إلى السفر إلى الخارج ، إلى ركوب الطائرة ، إلى الذهاب إلى أمريكا وأوربا وكل بلاد الدنيا ، فلماذا لا وقد أصبح يراها وأصبحت من أحلامه أن يمتلك فى بيته ما يمتلكه الآخرون الذين يراهم على الشاشة الصغيرة فى بيوتهم ، الثلاجة والغسالة والفيديو والفرن الكهربائى ..

ولكن بسبب عامل اللغة فلقد كان مستحيلاً على ابن القرية أن يطير مرة واحدة إلى أوروبا ، وأمريكا ، لقد ظلت اللغة هى الحاجز الذى يمنعه من الذهاب إلى الغرب ، وهو الآن الذى يتأكد لك عندما تجد أن معظم الشبان خريجى الجامعات أو المعاهد أو الذين يستطيعون التعامل باللغات الأجنبية قد فعلوها ، فالذين لديهم إمكانية اللغات سافروا غربًا ، والذين لم تمكنهم اللغة سافروا عربًا ..

والاثنان فى رأيى سافرا من أجل هدف واحد ..

الشاب الذى سافر إلى النمسا ليبيع الصحف ويرتضى غسل الأطباق مثله مثل ابن القرية الذى سافر إلى الكويت والعراق وغيرهما يعمل فى أى عمل هناك .

الهدف واحد وهو الخروج أولا من إطار البلد الذى يعيشان فيه مصر ، وكان هذا البلد قد تحول فى نظر كل منهما إلى سجن .

ثم بعد ذلك أن يكون دخله بالعملة الأجنبية سواء كانت بالدينار أو الدولار ..

ثم بعد ذلك أن تصبح لديه قدرة امتلاك واستحواذ بعض الأجهزة التى يراها فى مختلف الصور التى يراها على الشاشة ..

وإذا كانت أساطير القرية المصرية تحمل من بين ما تحمل أسطورة «النداهة» التى تستولى على فكر ابن أو ابنة القرية وقد كانت حدودها أن تجذبه إلى ترك قريته والسفر إلى مصر ، فإن نداهة جديدة أصبحت اليوم تستولى على أبناء القرية تدفعهم إلى ترك كل مصر ..

والآن فقد حان الوقت أن نحرض كل هؤلاء على إعادة التفكير فى خروجهم .

جاء الوقت الذى يجب أن نستفيد فيه من كل الدروس والتجارب والمآسى التى عاشها أبناؤنا فى الخارج ، ونقول لكل شاب بلدك مصر أولاً ، وبلدك مصر ثانيا وبلدك مصر ثالثًا ..

ذلك أننى كنت ألحظ بصراحة أنه عند سؤالى أى شاب تخرج حديثًا عن رغبته الأولى بعد التخرج فإن إجابته هى الخروج من مصر ، والعمل خارج مصر ..

وهى ثورة الأطماع والأطماح والأمانى الكامنة فى داخل ونفس كل شاب سواء فى المدينة أو القرية فلم يعد هناك خلاف بين الاثنين ، وإحساسه الداخلى أنه لا يستطيع أن يحقق أمانيه فى بلده وإنما خارج بلده .. وأنه إذا كان يقبل غسيل الصحون وتكسير الأحجار وبيع الصحف فى البلاد الأخرى فإنه أبدًا أبدًا لا يمكنه أن يقبل مثل هذه الأعمال فى بلده .

ولست على كل حال من الذين يطالبون الشباب بإخفاء شخصيتهم ، بل إننى أرى أن أى تغيير يحدث فى المجتمع لابد وأن يأتى من الشباب بخطوات صريحة .. فالشاب الذى يبدأ حياته ببيع الصحف فى مصر قد تضايقه فى البداية عيون المستنكرين أو الشامتين ، ولكنه بعد أن يجمع ما كسبه سوف تحيط به عيون الحاقدين الحاسدين – والموضوع بلا شك طويل ، ولكن الذى أريد أن أركز عليه فى رسالتى هذه إليك هو بلدك ..

إن كان هناك من فى حاجة إلى جهدك فهو بلدك ..

وإن كان هناك من تستطيع أن تحقق فيه أحلامك فهو بلدك ..

ربما كان الطريق هنا فى مصر طويلاً ولكنه مأمون ..

ازرع فى بلدك فهى أولى ..

ابن فى بلدك فهو أحق ..

جاهد فى بلدك فهو يستحق ..

والآن ما قيمة أى أموال يجمعها المصريون فى الخارج ولا تجد فى أرض مصر فلاحًا يصلح أرضها ويزرعها ..

هذا إذا عاد بما جمعه من أموال ومدخرات ولكن ها أنت ترى ما حدث لأبنائنا فى الكويت والعراق ، فانشر رسالة بلدك على كل معارفك ، علمهم أن مصر قد تكون فى ظروف صعبة اليوم ولكنها مثل المريض الذى فى حاجة إلى رعاية ليشفى ويقف على قدميه ولو تركناه بلا رعاية فلا تنتظر له شفاء ، بلدك أولاً وثانيًا وثالثًا .. ودمت لمصر ، ودام حبك لها وعطاؤك لها وإلى أن نلتقى فى رسالة قادمة أرجو أن تتقبل كل محبتى .

الدين والشرف والحياة من أجل جرعة

عزيزى شريف :

دق جرس التليفون فى مركز شرطة شيكاغو فى أمريكا ، ليسمع الضابط النوبتجى صوت مواطن يبلغه بالعثور على طفل رضيع أمام باب البيت .

لم تستطع الشرطة معرفة شيء عن هذا الطفل ، فأودعته إحدى دور رعاية الأطفال على أمل أن يظهر له صاحب ..

بعد أيام وفى دورية تقوم بها الشرطة تم القبض على عدد من النساء بتهمة ممارسة الدعارة وأودعن السجن ..

إحداهن كان تخبط رأسها فى جدار السجن ، وهى تصرخ ، وفيما بعد عرف أنها أدمنت الكوكايين ، وأنها عندما جاء موعد تناولها الجرعة التى تعودت عليها أحست بالعذاب الرهيب الذى يخنق المدمنين ، وإلى حد ما استطاع طبيب السجن المتمرس على مثل هذه الحالات السيطرة على الموقف حتى هدأت ، ولكن ما هى إلا دقائق حتى عادت إلى البكاء والصراخ .

هذه المرة لم تكن تبكى من عذاب الإدمان وحرمانها من الجرعة ، ولكن لأنها أخيرًا تذكرت أنها كان لها طفل رضيع وأنها فى إحدى النوبات التى تهاجمها عندما يأتى موعد الجرعة قامت برهن الطفل عند أحد الجيران نظير

٥٠ دولارا . ولم تستطع الأم أن تجد وسيلة تكسب بها الدين الذى رهنت به طفلها غير ممارسة الدعارة ، ولكنها كانت تدخر كل دولار تكسبه لتشترى به مزيدًا من الكوكاكين .

وتصاعدت المأساة عندما وجد الجار الذى رهنت الأم عنده طفلها ، أنه ليس فى حاجة إلى هذا الطفل ، فألقى به أمام أقرب بيت وتركه ، ولحسن الحظ أمكن تسليم الطفل إلى الشرطة ، ولحسن الحظ أيضًا تم اكتشاف أن هذا الطفل الضال هو نفسه الذى رهنته تلك المرأة من أجل جرعة مخدرات .

عزيزى شريف :

أردت أن أبدأ خطابى إليك هذا الشهر بتلك الحكاية الحديثة جدًّا ، والتى جرت وقائعها فى الشهر الماضى ، لأؤكد لك وأنا أواصل معك ما انقطع من حديث المخدرات ، إلى أى حد يمكن أن تصل هذه المخدرات بالإنسان ؟ فها هى ذى ترهن طفلها وتتخلى عن شرفها وتخسر حياتها من أجل جرعة ..

إننى أعرف أنك تريد أن تسأل لماذا خلق الله هذه المخدرات فى الدنيا إذا كانت هى السبب فى كل تلك الكوارث ؟

والواقع أن هذه المخدرات ليست فى الأصل هى السبب فيما يحدث للإنسان ؛ ذلك أن الله عندما دل الإنسان عليها وعلى تأثيرها فإنما ليستفيد بها ويحسن استخدامها فى راحة الإنسانية .

هل يمكن لك أن تتصور عملية جراحية تجرى بدون بنج ؟ كم ألف عملية تجرى كل يوم فى أنحاء العالم الواسع ؟

إن هذا البنج الذى مكن الأطباء من إجراء آلاف العمليات الجراحية التى يفتحون فيها بطن المريض وصدره وأى جزء فى جسمه دون أن يحس المريض بألم ، هذا البنج هو نتاج تلك المخدرات التى تسأل : لماذا أوجدها الله ؟

ثم غير هذا ، هل لديك فكرة عن آلام إصابات كالكسور والسرطان وبعض الأمراض العصبية بدون حقن المورفين وغيرها ؟ وهى نتاج بعض أنواع المخدرات ، ولم يكن من الممكن بدونها السيطرة على الآلام التى تصيب بعض المرضى ، وتجعلهم يريدون – كما فى أزمة الكلى مثلاً – أن يعضوا الأرض .

إن هذه المخدرات فى الأصل ضرورة للإنسان ، وبدونها كانت الإنسانية ستواجه آلامًا رهيبة .

والأطباء ومعامل الصيدليات تسمى المخدرات بالعقاقير ، وبالمناسبة فإن العقار غير الدواء ، فالعقار هو أى مادة كيماوية تؤثر على أساسيات الجسم ، كما أنه الجزء النشيط فى تركيب الدواء ، وهذا يعنى أن جميع الأدوية تحتوى على عقاقير ، ولكن ليس كل عقار دواء ، فالكحول والنيكوتين عقاقير موجودة فى الخمر والسجائر ولكنها ليست أدوية .

والمخدرات تدخل فى بند العقاقير المعروفة عالميا باسم DRUGS، وفى المؤتمر الذى عقدته الأمم المتحدة فى فيينا فى شهر يونيو الماضى والذى كان مخصصًا لمناقشة المخدرات ، فإن اسم المؤتمر كان «مؤتمر إساءة استعمال العقاقير» وهذا يعنى أن هذه العقاقير أو المخدرات قد وجدت أصلاً لتقوم بدور فى خدمة البشرية ومجال الطب ، ولكن الإنسان استطاع أن يسىء استخدامها ويحولها من رسول خير لإسعاده وراحته وتخفيف آلامه ، إلى معول لتحطيم خلايا مخه وروحه وفكره وشخصيته ..

إن أقدم أنواع المخدرات وأشهرها إلى وقت قريب هو الحشيش .

وهذا الحشيش يتم استخراجه من زهور نبات اسمه القنب ، يبلغ طول ارتفاعه عن الأرض نحو مترين ، مما يصعب معه بسبب طوله زراعته سرا .

وأشهر الدول التى تتم فيها زراعة الحشيش أفغانستان وباكستان ولبنان وتركيا والمغرب والمكسيك وكولومبيا .

ومن الطرق التقليدية فى تصنيع الحشيش ضغطه إلى ما يشبه الكعك ، ويختلف لون الحشيش بحسب مكان زراعته ، لكن ألوانه الغالبة هى الأخضر والأسود والبنى الغامق .

وكذلك فإن أشهر وسائل استخدام الحشيش تدخينه بعد تقطيعه إلى قطع صغيرة وخلطه مع دخان إحدى السجائر أو التومباك المعروف بالمعسل الذى يتم تدخينه بواسطة «الجوزة» .

وشىء شبيه بالحشيش عرفوه فى أوروبا وأمريكا اسمه «المارجوانا» والمارجوانا يتم الحصول عليها من نبات القنب أيضًا ، إذا كان الحشيش يستخرج من زهور هذا النبات فإن المارجوانا يتم الحصول عليها من الأجزاء العليا فى الزهور الجافة ، والمارجوانا عادة أخف من الحشيش .

وفى مناطق إنتاج الحشيش فإن طن الحشيش يباع بنحو ٥٠٠ دولار ، ولكن هذا السعر يرتفع إلى أكثر من ٢٠ ألف دولار عندما يصل إلى زبائنه فى مختلف الدول ، ومعظمهم من الشباب .

ومن المؤكد أن أهم سبب لتناول الشباب للحشيش هو غريزة حب الاستطلاع ، تلك الغريزة التى تدفع الشاب إلى اجتياز آفاق المجهول باعتباره مغامرة يستمتع نفسيا بمحاولتها .

وكما أن الخير موجود والشر موجود فإن كثيرين من الشباب يجدون من زملاء الشر من يسهلون لهم تلك التجربة ، ويزينون لهم الآثار المختلفة التى سيحدثها الحشيش لديهم ، وكلها خيالات وأوهام تساعد على تأكيدها سحب دخان الحشيش المحترق ، ولكن الشىء الثابت أن أهم تأثير للحشيش هو إحساس الواقع تحت تأثيره بالخوف الذى يبلغ درجة الجبن ، وأيضًا بعدم تقدير المسافات أو الأشياء ، فهو قد يكون بينه وبين نهاية الشارع الذى يريد أن يصل إليه مسافة لا تتجاوز عشرة أمتار لكنه يتصورها ألف متر ، وهو قد يرى نقطة ماء فوق الأرض فيتصورها بركة يخوض فيها ، وبالفعل يمد يده ليرفع رجل

بنطلونه حتى لا تبتل بالماء ، ويراعى الحذر فى مشيته إحساسًا منه بأنه يخوض فى البركة !

وفى دراسة أعدتها جمعية سويدية عن المظاهر التى تصيب الشباب الذين يتعاطون الحشيش ، حددت الدراسة قائمة طويلة من هذه المظاهر ، طلبت الجمعية من أولياء أمور الطلبة ملاحظتها على أبنائهم لاستكشاف تعاملهم مع الحشيش .

وهذه القائمة تضم المظاهر التالية :

١ – يستيقظ الشاب متعبًا وفى الغالب يفوته موعد المدرسة .

٢ – يبدو قلقًا عصبيًا فى يوم وسعيدًا نشيطًا فى اليوم التالى .

٣ – الميل إلى الخروج ومغادرة البيت يفوق كثيرًا رغبته فى البقاء داخل البيت .

٤ – يكون له عادة أصحاب جدد غير معروفين .

٥ – لا يجيد الإصغاء ويكون عادة مكتئبًا .

٦ – تظهر فى البيت ظاهرة اختفاء نفوذ منه ، وتظهر على الشاب ميول الاقتراض وربما يبيع بعض الأشياء من المنزل .

٧ – تبدو عليه علامات التفكير بطريقة جديدة غير مألوفة منه ، ويتحدث عن أفكار غريبة .

٨ – يستخدم يديه فى حركات ربما غير إرادية ، وله نظرة غريبة حادة .

٩ – احمرار العينين من الظواهر المألوفة .

١٠ – يميل إلى تناول المأكولات الحلوة خاصة فى المساء .

١١ – يشعر بالعطش ويكح عادة كثيرًا .

١٢ – تهاجمه الأحلام المفزعة والكوابيس .

وتقول الدراسة إنه مع إدمان الشاب فإن هناك أعراضًا أخرى مؤكدة تظهر عليه ، منها أنه يسهل إثارته وأنه لا يجيد الاستماع ويكون ملولاً وينسحب بسرعة من أى مكان لأنه يميل إلى الانطواء وكثيرًا ما يصل إلى مرحلة لا يأبه فيها بأى شيء ، فلا رغبة فى العمل ولا فى الذهاب إلى المدرسة ولا حتى الاهتمام بالعلاقة مع الجنس الآخر .

وهذه ليست إلا أعراضًا ظاهرة ، أما طبيا فإن إصابة مدخنى الحشيش بالسرطان أكثر كثيرًا من غيرهم ؛ لأنهم يتعاملون مع صنفين فيهما أكبر نسبة من أسباب الإصابة بالسرطان ، أحدهما نيكوتين الدخان ، والثانى الحشيش نفسه .

وصحيح أن الحشيش هو أخف أنواع المخدرات التى سأحدثك عنها فى رسالتى القادمة ، وربما كان من صفاته أن التخلص منه ليس فى صعوبة الأنواع الأخرى التى تؤثر على خلايا المخ ، بينما تأثير الحشيش يمتد إلى الخلايا العصبية مما يؤثر على حيوية الشاب وقدرته الجسمانية ويجعله أكبر كثيرًا من سنه ، وهكذا فإنه فى مقابل المتعة الخيالية التى يجرى وراءها الشاب يفقد الكثير من شبابه ، تتضاءل قوته ، تتبلد مشاعره ، يفقد روح الحماسة ، فهل تعادل التضحية بالشباب وقوته ومشاعره وحماسته متعة الدقائق التى يمضيها الشاب مع سحب الدخان ؟

إن الحياة خيار مستمر ، عليك أن تختار فيها تقريبًا كل يوم بل ربما كل ساعة بين شيئين : تذاكر أو لا تذاكر ، تصلى أو لا تصلى ، تخرج مع رفاق السوء وتترك نفسك كرة يتلاعبون بها ، أو تثبت قوتك وتختار إرادتك ؟ الخيار دائمًا لك ، وكل ما أستطيعه هو أن أحاول إضاءة الطريق أمامك بخبرة سابقة ومعرفة أوسع ، وأنا واثق أنك عندما تعرف سوف تقرر وتختار ما يجب أن يكون ، لك كل أمنياتى وإلى أن نلتقى فى رسالة قادمة بإذن الله .

حتى لا نفسد صنع الخالق

عزيزى شريف :

هاهو ذا شهر جديد يبدأ ، وإن كان يختلف عن الشهور السابقة فى إشارته الواضحة إلى بداية سنة جديدة من عمر الإنسان والبشرية والتاريخ ، ولابد أنه قد مر عليك فى قراءاتك أن المصريين القدماء كانوا أول من قاسوا الزمن وعرفوا السنة والشهور ..

لقد كانت عبقرية بالفعل أن يتوصلوا إلى تحقيق ذلك بغير الساعات التقليدية الموجودة اليوم ، ومع ذلك فقد أمكنهم تأمل الحياة وظروفها ومتابعتها بكل دقة ، حتى أمكنهم معرفة هذا المقياس الجديد الذى اسمه سنة ، وأنت تعرف أن من السهل معرفة اليوم بشقيه الليل والنهار ، وأنه لم يكن صعبًا عليهم معرفة اليوم ، فكيف عرفوا السنة والشهور ؟ لقد أخذوا يتابعون الأيام ويراقبونها ، ولاحظوا تغير الجو من فترة لأخرى ، لقد جاء وقت كان هناك برد عقبه جو معتدل ثم جو حار ثم جو مائل إلى البرودة بعض الشىء ثم جو بارد فمعتدل فحار وهكذا ، تتابع منتظم مستمر لحالة الجو ، ومن هذه المتابعة عرفوا الفصول الجوية وتتابعها ، ثم حصروها فى مقياس زمنى تمكنوا بعده من تقسيم السنة إلى ١٢ شهرًا بحسب متابعتهم لدورة القمر ، وأعطوا كل شهر ٣٠ يومًا ، وكان كل همهم من هذا التقويم حساب مواعيد الزراعة من بذر وحصاد ، ومواعيد ارتفاع منسوب نهر النيل ..

هناك بالطبع تفاصيل كثيرة بالنسبة للتقويم الخاص بشهور السنة الإفرنجية ، ولكن أهم ما يجب أن تعرفه أنها كانت من ابتكار الرومان وأنها تعرضت لفترة طويلة لعدم الدقة ؛ إلى أن جاء الحاكم الرومانى جريجورى الثالث عام ١٥٨٢ وأدخل تصحيحًا على الأخطاء التى كانت تتعرض لها حسابات الشهور ، وأعطى هذه الشهور الأسماء الإفرنجية التى نتداولها اليوم وأطلق اسمه شخصيا على أول هذه الشهور (يناير) بعد أن جعل أول يناير هو أول السنة ، وكان يوم ٢٥ مارس من قبل هو أول أيام السنة ..

ومنذ ذلك الوقت لم يتغير التقويم ، ولم يتغير الأساس الذى قام عليه حساب الزمن ، فهذا الحساب يعتمد على حركات الأجرام السماوية وأهمها الأرض والقمر .

إن القمر يدور حول الأرض ، والأرض تدور حول الشمس ، ومن هذا الدوران تمضى الحياة ، كل الأجرام السماوية فى حالة دوران مستمر ، وبالحساب الدقيق اكتشفوا أن الأرض تتم دورة كاملة حول الشمس فى ٣٦٥ يومًا و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٦ ثانية ، كل دورة تتم فى نفس الموعد المحدد باليوم والساعة والدقيقة والثانية ، أو ما يعنى أن دورة الأرض حول الشمس تقطع ٣٦٥ يومًا وربع يوم ، وهو ما جعل الحاكم الرومانى جريجورى الثالث يتوصل إلى ابتكار سنة كل أربع سنوات من ٣٦٦ يومًا لحل مشكلة ربع اليوم .

عزيزى شريف :

ألم يلفت نظرك شىء فى هذا الذى قلته ؟ إننى شخصيًا توقفت أمام دقة الوقت الذى تتم فيه الأرض دورتها حول الشمس ، من المؤكد أن كل جرم يدور حول جرم آخر له موعد ثابت تتم فيه هذه الدورة ، ليس هناك ثانية ناقصة أو زائدة ، ثم إن الحياة كلها نوع من الدوران ، بسرعة معينة حددها الخالق ونظمها ونسقها وحمى بعضها من تدخل الإنسان ، وإلا تصور لو أن

الإنسان هو الذى كانت له قدرة التحكم فى سرعة الأرض ، أو أى جرم من الأجرام ! تخيل لو أن حاكما أو سلطانًا أو إمبراطورًا مجنونًا أو مختلاً أتاحت له الأقدار يومًا أن يتحكم فى هذه السرعات ، أى كارثة كان يمكن أن يتعرض لها العالم ؟

سوف أضرب لك مثلاً واحدًا أوصل به ما يبدو أنه انقطع من حديث بدأته قبل رسالتين مضتا ، وكنت أتحدث فيهما عن المخدرات والهيروين بالذات .

لا تعجب وأنا أنتقل بك من الحديث عن بداية سنة وحكاية التقويم ودوران الأجرام حول أجرام أخرى ..

إن الدوران كما قلت لك هو سر الحياة ، ويوم يتوقف هذا الدوران فى أى كائن تنتهى الحياة ، الإنسان أيضًا حياته معلقة على استمرار الدوران الذى هو سر الحياة .. فهل تعرف كيف ؟

إن أى بيت مهما صغر أو كبر وحدته هى الطوبة ، أو ذرة التراب التى منها الطوبة ، وكذلك الإنسان ، وحدته الأساسية هى ما يسمى علميا بالخلية ، والخلية عبارة عن نواة ومادة أخرى حار فيها العلماء اسمها البروتوبلازم ، وسر حيرتهم أنهم عرفوا تركيب ومكونات هذا البروتوبلازم لكنهم لم يستطيعوا حتى اليوم أن يتوصلوا إلى صنعه ..

ثم إنهم اكتشفوا أن هذا البروتوبلازم فى كل خلية يدور بصورة مستمرة حول نواة الخلية ، حركة لها سرعتها التى حددها الخالق وأحكم توازنها لكى يستطيع الإنسان أن يواجه الحياة ..

ثم كانت ملاحظة أخرى ، أنه إذا زادت سرعة دوران هذا البروتوبلازم على الحد الذى حدده له الخالق فإن الإنسان يختل ، أبسط نموذج على ذلك ما يحدث عندما يلمس الإنسان سلكًا كهربائيًا ، هذا التيار الغريب الجارف الذى يصيبه ويجعله ينتفض ما سببه ؟ سوف تقول إنها الكهرباء انتقلت إليه ، وهذا صحيح ، ولكن ما الذى فعلته هذه الكهرباء فى جسم الإنسان ؟ إنها

حركت البروتوبلازم داخل الخلايا بسرعة جنونية ، كل الخلايا اختلت سرعتها المنضبطة عليها ، وخرجت عن حدود سرعتها ، فكان هذا «الماس» الذى ينتفض له الإنسان عند ملامسة أى سلك كهربائى والذى لابد وأن ينتهى إلى الموت صعقًا لو أن الإنسان لم يقفز بسرعة ويبتعد عن الكهرباء ..

شىء مثل ذلك وجدوه يحدث مع الهيروين ، عندما يتعاطى الإنسان الهيروين ..

كانت التجربة مثيرة جدًّا لكنها بالغة الأهمية ، ففى معامل الاختبار جاءوا بعدد من الخلايا الحية ووضعوها تحت المناظير المكبرة وأضافوا إلى المحلول الذى تعيش فيه كمية من الهيروين ، كمية بالغة الضآلة لكن ذراتها بدت تحت الميكروسكوبات كبيرة وضخمة ..

وكان المشهد مروعًا ورهيبًا فى الوقت نفسه ..

الخلايا الحية بدأت تلتهم ذرات الهيروين ، وكان أول رد فعل أن السرعة التى يدور بها البروتوبلازم داخل الخلايا قد انخفضت عن معدلها المنضبطة عليه ..

وعادوا يرقبون بدهشة ما يحدث بعد ذلك ..

وجدوا الخلايا الحية بعد أن التهمت كل ذرات الهيروين قد استمرت حركة البروتوبلازم داخلها فى حركتها البطيئة المنخفضة ، ثم فجأة وكما لو أن تيارًا كهربائيًا مجنونًا أصابها ، انطلقت فى سرعة بالغة نشيطة أسرع كثيرًا من المعدل الذى كانت منضبطة عليه ، ولم تهدأ هذه السرعة إلا بعد أن ألقوا إليها بذرات جديدة من الهيروين !

ومن هذه التجربة عرف العلماء لأول مرة وأدركوا التأثير الذى يقع مدمن الهيروين أسيرًا له ..

فالذى يحدث أنه عند تعاطى الهيروين فإن حركة البروتوبلازم داخل خلايا الإنسان تنخفض عن معدلها ، إلى أن تقوم الخلايا بالتهام كل جرعة الهيروين التى وصلت إليها ، فتنتفض هذه الخلايا بسرعة بصورة جنونية ، وحتى تعرف حجم تأثير هذه السرعة يجب أن تعرف أولاً عدد الخلايا التى تتعرض لمثل هذا التغيير ، فهى ليست ألف خلية أو مائة ألف خلية أو حتى مليون خلية وإنما هى ١٣ ألف مليون خلية !

١٣ ألف مليون خلية تسرع حركة البروتوبلازم داخلها بصورة مجنونة ، تمامًا كما لو أنك أطلقت داخلك ١٣ ألف مليون سيارة مجنونة ، تصور حجم تأثيرها على رأس الإنسان وصدره وأعصابه وأطرافه وجسمه كله ، تصور ١٣ ألف مليون أصبع تدفعك ، و١٣ ألف مليون يد تهزك ، إنها نيران ، قنبلة ذرية ملتهبة داخل الإنسان يجد نفسه مضطرا لإبطال مفعولها بإلقاء مزيد من الهيروين إليها فتبطئ حركة البروتوبلازم ، ويشعر المتعاطى بالتوازن والهدوء النسبى ، إلى أن ينتهى تعامل الخلايا مع الهيروين فتعود السرعة المجنونة من جديد ، وهكذا دوامة رهيبة يضغف أمامها أى إنسان..

عزيزى شريف :

لقد كان من المصادفات الغريبة بعد أن بدأت معك حديثًا عن المخدرات والهيروين قبل شهرين ، أننى استمعت إلى وصف كامل ودقيق عن تأثير الهيروين من فنان اعترف لى بأنه وقع ضحيته ، واستطاع بمعجزة من الله وشاركت فيها زوجته أن يخرج من جحيم هذا الهيروين ويضع قدمه على أول طريق النجاة .

هذا الفنان هو الممثل السينمائى والمسرحى والتليفزيونى فاروق الفيشاوى ، وأعترف لك مخلصًا يا عزيزى شريف أننى قبل أن أستمع إلى اعترافات فاروق الفيشاوى فإننى كنت أعتقد أن ما أقرؤه عن تأثير الهيروين على المتعاطين كان

فيه مبالغة بعض الشيء ، فالإنسان إذا أدمن أى شيء يستطيع بقرار منه وإرادة قوية أن يتخلص من إدمانه ، ثم إن هناك إلى جانب رفاق الشر، أصدقاء الخير الذين لابد أن يقولوا له «عيب» وينصحوه ويهتدى بنصيحتهم ، ولكننى اكتشفت من فاروق الفيشاوى أن الهيروين لا يترك للذى يتعاطاه فرصة التفكير فى التخلص منه ، إنه يسيطر عليه بصورة وصفها لى فاروق بأن كل شيء فى حياة مدمن الهيروين يتلخص فى شيء واحد هو تمكنه من الحصول على هذا الهيروين ، أى شيء آخر لا يهم ، لا العمل ولا الحب ولا الأبناء ولا الآباء ولا الشهرة ، المهم هو ضمان الحصول على الهيروين ، ولعل هذا هو الذى جعلنى أحاول متابعة ومعرفة الأثر العلمى الذى يحدثه هذا الهيروين فى داخل الإنسان ، إلى أن اكتشفت سر التأثير الرهيب الذى يحدثه هذا السم اللعين على حركة البروتوبلازم فى الخلايا ، ولو أننا أمعنا الفكر قليلاً لوجدنا أن الإنسان استطاع أن يتدخل فى سرعة الدوران التى حددها الخالق وجعلها منضبطة مع توازن الإنسان فى نومه واستيقاظه ، تدخل الإنسان فى هذه السرعة فكانت النتيجة أنه أفسدها وأخل بها ، وجاءت الكارثة عليه ..

إن علاج المدمن كما قلت لك بالغ الصعوبة ، وبالحساب الدقيق فإن أقل من عشرين فى المائة هم الذين يكتب لهم الشفاء من إدمانه ..

ولكن هناك وسيلة مضمونة وسهلة وميسرة لنجاة أى إنسان منه ، هى ألا يحاول تجربته ، وهذا ما جعلنى أكتب إليك كثيرًا عنه ، لقد حدثتك فى رسالة سابقة أنه يتم تصنيعه من الأفيون تقريبًا بمعدل كيلوجرام من كل عشرة كيلو جرامات من الأفيون ، وهذا يعطيك فكرة عن أن تأثيره عشرة أمثال تأثير الأفيون ، وقلت لك فى رسالة سابقة ، إنه حتى اليوم لا يوجد مثيل لهذا الهيروين فى المكاسب التى يحققها للذين يتاجرون فيه ، وهو ما يجعلهم يلهثون وراء محاولة تهريبه ونشره لكى يكثر زبائنه وتتضخم مكاسبهم التى تتجاوز المليون جنيه فى الكيلوجرام الواحد !

ولا تعجب فأسوأ أنواع الهيروين وهو النوع المكسيكى الذى كان يتعاطاه فاروق الفيشاوى كان يدفع ٦٠٠ جنيه يوميا ثمنًا لحصوله على جرامين منه ، أى أن الجرام ثمنه ٣٠٠ جنيه ، وهو سعر جملة ، لأن هذا الجرام يتم توزيعه إلى شعرات ضئيلة أصغرها يعادل واحدا على ٢٠ من الجرام وتباع بـ ٤٠ جنيهًا ، مما يرفع سعر الجرام الواحد فى القطاعين إلى ٨٠٠ جنيه .

والعادة أن يبدأ المتعاطى بأقل كمية ، ثم مع الأيام يجد أنها غير كافية ، وهكذا حتى يصل إلى ما وصل إليه فاروق الفيشاوى الذى كان يستهلك جرامين كل يوم !

وليس هناك بالطبع من يستطيع أن يتحمل هذه الأموال ، ولهذا انتهى كل الذين تعاملوا مع الهيروين إلى الخراب ، الخراب الحقيقى الذى وصل إلى حد بيع المدمن لبدله وأحذيته القديمة ، ثم بعد ذلك ارتكاب أى جريمة للحصول على المال ، ثم بعد ذلك كله النهاية المؤكدة وهى إحدى ثلاث نهايات : السجن أو الجنون أو الموت ! لم يعرف التاريخ مدمنًا لم ينته بغير إحدى هذه النهايات الثلاث ، والخطير أن زبانيته يبحثون عن زبائنهم بين الشباب ، على أساس أنهم الأقل خبرة والأكثر جرأة وحبا للمغامرة والمخاطرة .

ولعلى أضيف إلى ذلك جهل شبابنا ، وأيضًا ما يلقى إليهم من أوهام تتعلق بتأثيراته الجنسية .

ودعنى فى ذلك أقل لك نقلاً عن كل الذين عانوا التجربة ، إن جميع أنواع المخدرات بغير استثناء تضعف العلاقة الجنسية وتقتلها ، والسبب منطقى جدًا ، فالمخدرات خصوصًا المنبهة والمنشطة مثل الهيروين ، تأثيرها كله على الجهاز العصبى الذى تجعله متنبهًا ومتيقظًا ، وتحرم المتعاطى من النوم تحت تأثير المنشط ، والواقع أن المدمن يواجه حالة من الانفصال بين جهازه العصبى المتركز فى دماغه ، وجسمه وعضلاته ، فالجهاز العصبى لا ينام وفى حالة تنبه أو نشاط ، بينما الجسم فى حاجة إلى النوم ، وبسبب حرمانه من النوم فإن قوة العضلات

تضعف وتخور ، ويفقد الإنسان قدرته على الجنس ، لأنه بغير القوة الجسمانية يصبح الجسم كالمريض الذى لا حول ولا قوة له جنسيًّا ..

هذه هى الحقيقة ، أقولها بكل البساطة والمنطق والوضوح لكى تعرف ، فالمعرفة هى النور الذى تستطيع أن تطرد به الذين يحاولون التسلل إليك فى الظلام لكى يغروك بشياطينهم ، وأية قوة مهما كانت رقيبة عليك تستطيع أن تهرب منها وتفلت منها ، ولكن هناك ضميرك ، داخلك ، عقلك ، تفكيرك ، معرفتك ، هذه كلها لوازم مرافقة لك تستطيع أن تدلك وتهديك وتجعلك قادرًا على محاربة جيوش الشر وقهرهم ..

كل سنة وأنت طيب ، وإلى أن نلتقى فى رسالة جديدة أتمنى لك عامًا سعيدًا وصحة جيدة تهنأ بها ويهنأ بها وطنك وكل أحبائك .

نريده مخلصا فى مصر كما هو مخلص خارج مصر

عزيزى شريف :

قبل أيام عدت من جولة صحفية سريعة زرت فيها كل دول الخليج العربى التى أصبح كل مصرى على معرفة بها ، وقد أتيح لى منذ عشرين سنة أو أكثر قليلاً أن أزور هذه الدول وأشهد خطواتها الأولى على طريق الانتقال من القرن الثامن عشر ، الذى كانت تعيش فيه إلى القرن العشرين الذى نعيش فيه .

كانت الهداية فعلاً متواضعة ، وكان لدى هذه الدول عذرها ؛ فهى فى معظمها بلاد صحراوية لا تكاد تحقق دخلاً يذكر ، وأكثر من ذلك فقد ظلت فترة طويلة تحت السيطرة الإنجليزية ، وعندما كتب لها أن تنتقل إلى عصر البترول ، فإنها ظلت سنوات طويلة أسيرة الشركات الاحتكارية العملاقة ، وعددها على وجه التحديد سبع شركات ، كان إنتاج البترول وتسويقه وتكريره فى كل العالم عدا دول الكتلة الشرقية يخضع لها كلية ؛ وهكذا فإن هذه الدول سياسيًا كانت تحت السيطرة الإنجليزية ، وبتروليا كانت تحت الهيمنة الاحتكارية ..

لقد تغير الموقف اليوم بالطبع فى هذه الدول ، ولابد أن أؤكد لك أن حرب أكتوبر ٧٣ قد ساعدت جميع دول البترول على تحرير ثروتها من قبضة الشركات ، ولقد أدى ذلك إلى زيادة دخل هذه الدول ، وكان من حسن حظها أن حرب أكتوبر ساعدت – بسبب تخفيض الإنتاج البترولى الذى أرادت به هذه الدول

أن تشارك فى الحرب – على زيادة حاجة الدول المستهلكة إلى البترول ، ومن ثم قامت دول الخليج برفع سعر بتروها كثيرًا ، ومن حوالى دولار واحد كان حصيلة هذه الدول من كل برميل تنتجه حتى عام ٧٠ ، فإنها أصبحت تحصل على أكثر من ٣٠ دولارًا عام ٨٠ ..

ولقد كانت قصة البترول فى هذه الدول على كل حال من أجمل الحكايات وأكثرها إثارة ، خصوصًا فى هذه الفترة التاريخية الفريدة التى بدأ فيها العالم كله وكأنما لو أنه وقف على أطراف أعصابه مشدودًا إلى كل حركة ، وكل قرار تصدره دول البترول ، لعل الظروف تسمح لى يومًا أن أكتب لك عن هذه القصة الرائعة التى يجب أن تعرفها ؛ فقد كان من حظى أننى عشت معظم فصولها وحضرت كثيرًا من مشاهدها المثيرة ..

عشر سنوات على كل حال باعدت بينى وبين هذه الدول فى الخليج العربى ..

عشر سنوات فترة ليست طويلة ، ولكن التغيير الذى حدث فى هذه الدول كان بالفعل كبيرًا ، كلها تغيرت ، كلها تم تعميرها على أساس تخطيط واع بعيد النظر ، تخطيط يعرف أن كل شىء دائمًا فى زيادة ، الناس فى زيادة ، المبانى فى زيادة ، وسائل الانتقال فى زيادة ، ولابد للتخطيط ألا يصادر احتياجات المستقبل لهذه الزيادة ، بل عليه أن يتوقعها ويحسبها ، ويترك للأجيال القادمة فرصة شكر الأجداد الذين دبروا لهم احتياجاتهم ، ولعل هذا ما نعانيه فى مصر ، فالزيادة الرهيبة التى نزيدها سكانًا ومبانى وسيارات ومدارس ومستشفيات و ... إلخ لا تستطيع مدننا سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم أن تستوعبها ..

دول الخليج استعدت لهذا المستقبل من اليوم ، ولكن الملاحظة اللافتة للنظر وهو ما قصدته فى الكتابة إليك ، كثرة عدد المصريين الذين يعملون فى هذه الدول ، والإخلاص الجاد الذى يمارسون به أعمالهم ، هناك آلاف المصريين الذين يعملون فى كافة المجالات ، لكن ما يلفت النظر أن معظمهم من الشباب ،

وأنهم جميعًا يعملون عملاً جادًا مخلصًا ، عملاً ملتزمًا مسئولاً ، عملاً ينمى ويضيف ويعمر ..

سألت نفسى وأنا أتأمل حركة هذا الشباب المصرى : لماذا يعملون هناك بكل هذا الجد والإخلاص والتفانى والاندماج ، ولا أجدهم كذلك فى بلدهم ؟

لا أقول ذلك بالنسبة لدول الخليج بالذات ، وإنما أقوله بصفة عامة عن كل مصرى شاب يسافر إلى الخارج .

الشاب المصرى لا يبحث فى هذه الدول عن ثغرات القانون المطبق لكى يحصل على إجازة أو يتمارض أو يهرب من العمل ، لا يضيع وقته هناك فى الحكايات وقراءة الصحف أثناء العمل ، لا يخرج «ساندوتش» من درج مكتبه ويأكله ويطلب كوب شاى ويترك المواطنين الذين قصدوه حتى ينتهى من الساندوتش وكوب الشاى ..

المصرى هناك فى هذه الدول ، إذا بحثنا نجده أول الذاهبين إلى عملهم ، وآخر الذين يغادرونه ، المصرى هناك من النادر أن يحصل على إجازة ، أو يحصل على إنذار أو عقوبة ، هناك يبدو أن للشباب المصرى معدنًا مختلفًا غير المعدن الذى نراه فى بلادنا فى المكاتب ومواقع الخدمة ، وإن كانت مصر فى أمس الحاجة إلى شىء اليوم ، فإنما إلى مثل هذا الجهد والعمل والإخلاص الذى يؤديه شبابها فى كل مكان يذهبون للعمل فيه خارج مصر ..

ألسنا هنا نتحدث عن زيادة الإنتاج ؟ ألسنا نقول إن لا حل لمشاكلنا إلا أن يزيد إنتاجنا بمضاعفة قدراتنا وزيادة عطائنا؟

لماذا لا يخلص شبابنا فى داخل مصر نفس إخلاصه خارج مصر ؟ هل هو الأجر أو المرتب الذى يحصل عليه ؟

أعرف شبانًا مصريين يعملون بالخارج ولكن بالكاد يكفيهم الأجر الذى يحصلون عليه .

وأعرف شبابا كثيرين لا يستطيعون مع العمل المرهق الذى يستغرق كل وقتهم فى الدول التى يعملون فيها ، أن يجدوا وقتًا للاستمتاع بالحياة ، ومع ذلك فهم يستمتعون بالعمل الذى يؤدونه ليس من أجل الفلوس ، وإنما لأنهم وصلوا إلى مرحلة الاستمتاع بالعمل ، تمامًا مثل اللاعب يحب لعبة ويشعر بالمتعة الكبيرة وهو يمارسها رغم كل الجهد الذى يبذله ، بل إنه بدون هذا الجهد لا يشعر بأنه لعب أو قام بواجبه ..

الحكاية كما يبدو ليست حكاية الفلوس وإنما حكاية بلوغ الإنسان نقطة الاستمتاع بالعمل ، نقطة اكتشاف أن الجهد كلما زاد كانت له حلاوته الخاصة التى تكسب النفس رضًا وترتفع بالأحاسيس بعد أن أصبح صاحبها مسئولاً ...

بكل أسف فإن شبابنا فى مصر لم يصلوا ، أو فلنقل إن كثيرًا منهم لم يصلوا إلى هذه النقطة الساحرة التى تشبه النقطة التى يبلغ فيها رجل الفضاء مرحلة انعدام الوزن ، فيتحول مهما كان ثقيلاً إلى ريشة خفيفة تستطيع الطيران بلا جناحين ...

كيف نجعل شبابنا فى مصر يبلغ هذه النقطة ؟

كيف نجعله يشعر أن بلده فى حاجة إلى نفس العطاء الذى يقدمه راضيًا سعيدًا فى الخارج ؟ ..

انظر إلى العامل المصرى داخل مصر تجده يعمل قليلاً ولكنه كثير الشكوى ..

العامل المصرى خارج مصر على العكس تجده يعمل كثيرًا ولكنه قليل أو نادر الشكوى ..

هل لأن المجتمع فى هذه الدول قد حقق تقدمًا أصبح يسعد المصرى أن يعيش فيه ؟

ولكن هذا التقدم ممكن أن نحققه أيضًا فى مصر لو أن كل شاب أضاف إلى عمله جهدًا أكثر من الذى يبذله ..

هل لأن مشاكل الشاب المصرى فى الخارج قليلة ، ومشاكله فى الداخل كثيرة ؟

ولكن معظم مشاكل الشباب المصرى من الفراغ ، وهى ملاحظة أرجو أن تتأملها ، فالذى يعمل معظم وقته مشاكله أقل كثيرًا من الذى لا يعمل إلا بعض الوقت ، ولهذا أصبح معروفًا عند أصحاب الأعمال والمديرين المسئولين أن كل الذين يثيرون القلاقل هم الذين لا يعملون ، وأن كل أصحاب الاحتجاجات والمظالم والشكاوى هم أقل العمال عملاً ، لأن الذى يعمل لا وقت عنده للشكوى ، صحيح أنه يحس بالجهد الكبير فى عمله ولكنه سعيد به ، يخيل إليه أنه لو توقف عن أداء هذا العمل فإن الكون نفسه سوف يتوقف ، وليس هذا صحيحًا ، ولكنه بلوغ النقطة التى حدثتك عنها والتى حولت الشاب أو الإنسان من مجرد عامل إلى عاشق ، يعشق عمله ، يعشق عرقه ، يعشق جهده .

وكل الدول التى تقدمت لم تحقق تقدمًا بالعمل ولكن بالعشق ، كل الذين عشقوا بلادهم هم الذين دفعوها دفعًا إلى قمة التقدم : الأمريكيون ، اليابانيون ، الألمان ، الإنجليز ، وغيرهم وغيرهم ، كلهم كانوا يعشقون عملهم ، وقبلهم جميعًا كان المصرى القديم الذى استطاع بحبه وعشقه لعمله أن يفعل المعجزات فى زمان لم تكن فيه أية وسيلة من وسائل التكنولوجيا التى تساعد أجيال اليوم ..

إن كنا فى حاجة إلى شىء اليوم فى مصر فإنما إلى شباب يتجاوز خط الشكوى والمظالم والفراغ ، ويبلغ نقطة الاندماج والتفانى فى عمله ..

إن كنا نريد شيئًا لمصر اليوم من شبابنا فليس أكثر من أن نرى جهد هذا الشباب وعمل هذا الشباب داخل مصر بمثل ما يقدمونه فى الخارج ..

عزيزى شريف :

إنها مسئولية ، ولعلك تكون أحد القادرين على تحملها لكى تستطيع أن تترك لأولادك من بعدك بلدًا متقدمًا يفخرون به .

لك تحياتى وإلى رسالة قادمة أرجو لك كل نجاح .